﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثرَ إعلانِ ألوهيَّةِ العِجْلِ يُثارُ إنكارُ العقلاء وتعجُّبُهم

بعد أن بيَّن النَّظمُ الجليلُ أنَّ السّامريَّ أخرجَ لهم منَ الذَّهب عِجلًا لا حياةَ فيه، وجعل فيه ثقوبًا تصوِّتُ صوتَ الخُوار، ووصفوه بالألوهيَّة؛ عقَّبَ على ذلك في هذه الآيةِ بالإنكارِ على فعْلِهم ذلك، والتَّعجُّبِ منَ النّاس كيف يَعبدون ما لا يردُّ لهم جوابًا، ولا ينفعُهم، ولا يضرُّهم؟

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْلِكُ﴾: (ملك) أصْلٌ يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، مَلَكَ الإنْسانُ الشَّيْءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ المِلْكُ؛ لِأنَّ يَدَهُ فيه قَويَّةٌ صَحيحَةٌ[1]، فالمُلْك ضبطُ الشَّيء المتصرَّف فيه بالحكم، والمَلَكُ والمُلْكُ والمِلْك احْتِواءُ الشَّيْءِ والقُدْرَةُ على الاسْتِبْدادِ بِهِ[2]، ومعنى ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ في الآية: لا يقدرُ على أن يدفع عنهم ضرًّا، وأن يجلبَ لهم نفعًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ على العقلاءِ لعبادتِهم ما لا يعقلُ

يُنكرُ النَّظمُ الكريمُ على الضّالّين من بني إسرائيلَ، وهم الذين عبدوا العجلَ، قائلًا: فكيف لا يرون أنَّ هذا العجلَ الذي يعبدونه لا يُكلِّمُهم، ولا يرجعُ عليهم بردٍّ من قولٍ ولا إجابةٍ، ولا ينفعُهم، ولا يضرُّهم؟[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

مَن تصدّى لحكايةِ الفتنةِ مُضطرٌّ لتبرئةِ نفسِه خلالَ كلامِه

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ للاعتراض بين الجُملِ التي سيقت لبيان أصلِ الفتنةِ، فجاءت بين الآيات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: 87]، والجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾، فتكونُ الجملةُ المعترضةُ ليست من حكاية كلامِ القوم، ويجوزُ أن يكون من حكاية كلامِهم، وهمُ الذين تصدّوا لخطاب موسى عليه السلام ممَّن بقيَ على الإيمان مع هارونَ عليه السلام، فيكونُ الغرضُ منَ الاستئناف إعلامَ موسى أنَّهم بقوا على التَّوحيد، وحفظوا وصيَّة موسى[1]، ويظهرُ في الآية الملاطفةُ في الرَّدّ والإنكارِ على ما هو سياقُ السّورةِ.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

الاستفهامُ إنكارٌ على عدم رُؤيتِهم ما يُرى بلا جهدٍ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهام المجازيّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ إذِ المرادُ ليس الاستخبارَ، بلِ الإنكارَ على شناعة صنيعِهم، والتَّنبيهَ على غباوتهم؛ لأنَّ هذا العجلَ المتَّخذَ من هذه الأجرام لا يصلحُ للإلهيّةِ، وأنَّ الإله ينبغي أن يكونَ سامعًا لدعاء عابدِه، عالمًا بأفعالِه، دافعًا عنه المضارَّ، مثيبًا ومعاقبًا، مع أنَّ دليلَ السَّمع شاهدٌ ببُطلانِه[2]، فأنكرَ عليهم عدمَ رؤيتِهم أنَّه مجرَّدُ عجلٍ، وأنَّ ذلك منَ الظُّهور بمكانٍ، فكيف يدّعون الإلهيّةَ للعجل، وهم يرونَه لا يتكلّمُ، ولا يستطيعُ نفعَهم ولا ضرَّهم، وأنَّه غيرُ قادرٍ على التَّحرُّك منَ الأصل، فعجزُه ظاهرٌ عن نفع نفسِه وغيرِه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288 - 289.

تقريرُ الرّؤيةِ علّةُ الإنكارِ

وثمَّةَ من يرى أنَّ الاستفهامَ ههنا للتّقرير؛ لأنَّ اللّه تعالى يُقرِّرهم بحصول الرّؤيةِ لهم، ومع تحقُّقِها فقد ضلّوا بعبادة العجْلِ من دون اللّه تعالى، وتقريرُهم هذا هو علّةُ إنكارِ اتِّخاذهم العجلَ معبودًا من دون اللّه تعالى[1].

معنَى الفاء، ودلالتُها على المحذوفِ:

تُفصحُ الفاءُ عن محذوفٍ مقدَّرٍ يدلُّ على تعاميهم عن الحقّ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالفاء الفصيحةِ بعد الاستفهام الإنكاريِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ لأنَّها عطفتِ الفعلَ على مقدَّرٍ يقتضيه السّياقُ، يكون بين الاستفهام وفعلِ الرُّؤية، والتَّقديرُ: "أحُرموا العقلَ الهاديَ، فلا يتفكّرون، ولا ينظرون بنظرِ البصيرةِ أنَّ هذا المتَّخَذَ من هذه الأجرام لا يصلحُ للإلهيّة، أم عَموا، وصَموا، فلا يهتدون إلى أنَّ الإلهَ ينبغي أن يكون سامعًا لدعاء عابدِه، عالمًا بأفعاله، دافعًا عنه المضارَّ، مثيبًا ومعاقبًا"[2]، وحذْفُ ما عطَفَت عليه الفاءُ ما بعدها في مِثْلِ هذا المقام للعُموم؛ لأنَّ ما يقتضيه المقامُ كثيرٌ مِن أوصافهم وطبائعِهم الشّاذّةِ القبيحةِ، وإنَّما جرت عادةُ المفسِّرين على تحديد أشدِّها قُربًا مِنَ السّياق.

علّةُ التَّعبيرِ بالرّؤيةِ مادَّةً وصيغةً:

العلمُ بالرُّؤيةِ البصريّةِ أبلغُ علْمٍ وآكدُه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ تعبيرًا عن رؤيتِهم ذلك بأعينِهم، فهي رؤيةٌ بصريّةٌ، ولكنَّها كنايةٌ عنِ العلم والاعتقادِ، ولا سيَّما عند تعليقِ الرُّؤية بقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ فإنَّ عدمَ امتلاك النَّفعِ والضُّرِّ لا يُرى بالبصر، والمرادُ انتفاءُ رؤية أثرِ انتفائِهما[3]، وقد آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد استحضارًا لتلك الحالةِ الفظيعةِ في ذهن السّامع؛ استدعاءً

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 324.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.

للأفكار عليهم[1]، وقد استغنى القرآنُ بالتَّعبير بـ﴿يَرَوْنَ﴾ مادَّةً وصيغةً عنِ التّصريح بقُبحهم وضعفِ عقولهم وشذوذِ نفوسِهم وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى؛ لأنَّ سياقَ السّورةِ الحِلْمُ عنِ المدعُوين، والتَّرفُّقُ بهم، وملاطفتُهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الرّؤيةِ:

حُمِلتِ الرّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ على العلمِ المطلقِ على سبيل الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ بجامع قوَّةِ الإدراك في كلٍّ منها[2].

دلالةُ التَّركيب ﴿أَلَّا﴾:

إيجازُ التَّعبيرِ بجمعُ التأكيدَ مع النَّفي

وُصِل في رسم المصحف الكريم بين (أنْ) و(لا)، فكُتِبتا ﴿أَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، فأدخل (أنْ) المخفَّفة على (لا) النّافية، واسم إنَّ محذوف، وهو ضميرُ الشَّأن والتَّقديرُ: (أنَّه لا يرجعُ إليهم قولًا)[3]، فالرُّؤيةُ متسلِّطة على الشَّأن والحقيقة، وهي أنَّ هذا العجْلَ عاجزٌ عنِ الكلام، وليس الضَّميرُ للعجل، فكونُ الضَّمير للشَّأن يدلُّ على المبالغة في انتفاء قدرته على الكلام؛ لأنَّه بمعنى أنَّ انتفاءَ قدرته عن ردِّ الجواب حقيقةٌ ظاهرةٌ لهم؛ بل للدّلالة على كمال ظهورِ الحقيقة المطلوبِ إثباتُها، وهذا إبلاغٌ فوق الإبلاغ المستفادِ مِن تسلُّط الرّؤيةِ البصريّة، قال أبو السعود: "وتعليقُ الإبصارِ بما ذُكِرَ مع كونِه أمرًا عدميًّا؛ للتّنبيه على كمال ظهورِه المُستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيكِ عقولِهم"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَرْجِعُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عجزُ الأوثانِ دائمٌ مستمرٌّ، ظاهرٌ للمشركين

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عن عجز العجلِ بنفي ردِّه الكلامَ في قوله

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 324.
(3) الخطيب، السراج المنير: 2/ 480.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 632.

تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ فهو لا يجيبُ القولَ؛ لأنَّ "ذلك محلُّ العبرةِ من فقدانِه صفاتِ العاقل؛ لأنَّهم يدعونَه، ويُثنون عليه، ويمجِّدونَه، وهو ساكتٌ لا يشكرُ لهم، ولا يعدُهم باستجابةٍ، وشأنُ الكامل؛ إذا سمع ثناءً أو تلقّى طُلبة أن يُجيبَ"[1]، وقد آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع للدّلالةِ على دوام انتفاءِ ردِّه الكلامَ، فهو تعبيرٌ عن دوام عجزِه، وفي المضارع دعوةٌ لهم إلى حوار العجلِ بغرضِ أن يرجعَ إليهم قولًا، وتَكرارُ ذلك تحدٍّ لهم، وإقامةٌ للحجّةِ عليهم، وهذا تعنيفٌ لهم، وسياقُ السّورة يجمع بين الملاطفةِ والتّعنيف.

نُكتةُ تعديةِ الإرجاعِ بـ (إلى):

انتفاءُ انتفاعِ الضّالِّ من وثنِه خصوصًا يُفصحُ عن الضَّلال الشَّديدِ

علَّق النَّظمُ الجليلُ فعلَ الإرجاع بحرف الجرِّ الدّالِّ على الغاية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، مبالغةً في ذمِّهم، فلم ينفِ عنه القولَ مطلقًا؛ إذ لم يقل: (لا يرجع قولًا)، بل جعل نفيَ ردِّ الجواب عنهم حسب، فأخرج النَّفيَ مخرجَ التَّخصيص مبالغةً في ذمِّهم؛ إذ إنَّهم يُصرّون على عبادته دون أن يجدوا منه ردًّا ولا جوابًا.

مَنْ ينتظرُ منَ الصّنمِ الجمادِ ردًّا فهو أهلٌ للسّخريةِ والتّعنيفِ

وفي التَّعبير بـ (إلى) بَسْطُ جناحِ التَّحدّي لهم، والمعنَى على هذا: حاوروه، وادْعُوه، وأثنوا عليه حتى يرجعَ إليكم قولًا، ولو بعد مدّةٍ طويلةٍ يكونُ فيها ما يكونُ منكم مِن ذلك، ومِن انتظارِ أن يرُدَّ عليكم بقولٍ، فالتّعبيرُ بـ (إلى) يتناغَمُ مع التّعبير بالمضارع: ﴿يَرْجِعُ﴾ في نور دلالتِه المتعلّقةِ بتحدّيهم، والسّابقِ ذكرُها، وفي التَّعبير بها تهكُّمٌ بهم وتعنيفٌ لهم، على معنى: وإن طال الحوارُ بينكم مِن جهتكم، وثناؤكم عليه ودعوتُكم إيّاه، فلن يرجع إليكم قولًا، ويظهرُ ما ذكرنا مِنَ الفوائد؛ إذا قارنتَ بين ما عليه النَّظمُ الكريمُ، وبين أن تقولَ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.

غير القرآن: (يرجع لهم) بوضع اللام التي يكونُ معها معنَى السُّرعة والسُّهولة في موضع إلى التي يكونُ معها معنَى البُطء والثِّقل والطّول.

فائدةُ تقديم شبه الجملةِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على المفعول:

دلائلُ عجزٍ في الأوثان ظاهرةٌ بانتفاء نفعِ مَن يعبدُها خصوصًا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المفعول في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ وأصلُ الكلام: (لا يرجع قولًا إليهم)؛ لأنَّهم لمّا اتَّخذوا إلهًا تراه أعينُهم، ويخاطبونَه عيانًا، فكان ينبغي أن يلاحظوا كونَه جمادًا كأيِّ شيءٍ آخرَ، فقدَّم شبهَ الجملة المتضمِّنةَ ضميرَهم للدَّلالة على أنَّ انتفاءَ الإرجاع واقعٌ عليهم؛ لأنَّهم هم مَن خاطبَه، فهو - وإن لم يردَّ الجواب مطلقًا - ولكنَّه نفاه عنهم خاصَّة لنفيِ أسبابِ اتِّخاذه إلهًا، فهو كأنَّه أجاب غيرَهم، ولكنَّه امتنع عن إجابتِهم على وجه الخصوص، وفي هذا مبالغةٌ في التَّشنيع عليهم والإنكارِ على رؤيتِهم انتفاءَ ردِّه الجوابَ وإصرارِهم على عبادته، وفي التّقديم أيضًا: تحريكُ بواعثِ النَّفسِ ضدَّ الإله الباطلِ الذي لا يمنُّ عليهم بقولٍ؛ كما حنّوا، ولجَؤُوا إليه، وأثنوا عليه، ودعوه إلهًا يتقرَّبون إليه، ويقتربون منه، وهذا خطابٌ للعقل، وبالجملة فالتّقديمُ يدحضُ كونَ العجل إلهًا.

نُكتةُ تنكير ﴿قَوْلًا﴾:

العجزُ عن لفظِ قولٍ ما دليلُ العجزِ عن فعلٍ مّا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ القول بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ للمبالغة في بيان عجزِ هذا الوثن، فهو لا يردُّ عليهم قولًا أيَّ قولٍ مهما كان مقدارُه، ووقوعُ النَّكرة في سياق النَّفي يدلُّ على الاستغراق، فهو نفيٌ يستغرق جميعَ الأقوال، فهو لا يقول لفظةً واحدةً ولا حرفًا.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾:

عطفَ النَّظمُ الجليل انتفاءَ قدرة العجلِ على النَّفع والضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ على انتفاء قدرتِه على

العجزُ عن الكلام والأفعالِ يُثير العجَبَ مِن اتِّخاذه إلهًا

الإجابة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ للدَّلالة على عجزه التّامِّ، فهو عاجزٌ عن الخطاب، وكذلك عاجزٌ عن الضُّرِّ والنَّفع، والمرادُ بذلك بيانُ شدَّة الإنكارِ في اتِّخاذهم له إلهًا، أي: فكيف تتَّخذونه إلهًا، وهو بهذا العجزِ الظّاهرِ[1]، فالجملة المعطوفةُ داخلةٌ في "حيِّزِ الرُّؤية، أي: أفلا يرون أنَّه لا يقدرُ على أنْ يدفعَ عنهم ضرًّا، أو يجلبَ لهم نفعًا، أو لا يقدرُ على أنْ يضرَّهم؛ إن لم يعبدوه، أو ينفعَهم؛ إن عبدوه"[2].

نُكتةُ التَّعبير بـ ﴿يَمْلِكُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

افتقارُ الوثَنِ دائمٌ في كلِّ الأزمنة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَمْلِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ نفيًا لقدرتِه على ميزةِ النَّفع والضُّرِّ، نفيًا متجدِّدًا دائمًا، فهو لا يفعلُ ما يطلبون منه بأيِّ زمن منَ الأزمان، فلا يأتي زمانٌ ما سيكون مجيبًا لهم ولا دافعًا للضُّرِّ عنهم، ولا جالبًا لنفعهم، وهذا يدلُّ على شناعة اتِّخاذهم له إلهًا؛ إذ انتفى ذلك عنه نفيًا متجدِّدًا.

المُلك صفةُ الإله الحقِّ، فلن يملكَ غيرُه دفْعَ ضرٍّ أو جلبَ نفعٍ مهما طُلبَ منه

وفي المضارع: تحريكُ بواعث التَّحدّي في نفوس هؤلاء الضّالين؛ بأن يحاولوا أن يطلبوا مِنَ العجل جلبَ نفع، أو دفعَ ضرٍّ، وأن يُكرّروا ذلك، وأن ينتظروا النّتيجةَ، وينظروا فيها، وفي التَّعبير بمادة: ﴿يَمْلِكُ﴾: إيجازٌ، يظهر لو عُبِّر بغيرها، نحو: ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا يأتي لهم بنفع، وفيه إيماءٌ إلى صفةٍ مِن صفاتِ الإله الحقِّ إله موسى، فهو الذي يملك كلّ شيءٍ ﷻ.

علَّةُ تقديم نفي إرجاعِ القول على ملك الضُّرِّ والنَّفع:

العجزُ عن الكلام أظهرُ في بيان ضلالِ الشِّرك

قدَّم النَّظمُ الجليل نفيَ قدرة العجلِ على إرجاع القول على نفي قدرتِه على الضُّرِّ والنَّفع في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 379.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 36.

﴿يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾؛ لأنَّ ظهورَ العجز عنِ الكلام أسرعُ من ظهور العجزِ عنِ النَّفع والضَّرِّ، فكان أدلَّ على كونِه ليس إلهًا، فإنَّهم قد يدافعون بأنَّ الضُّرَّ والنَّفع قد يتأخَّر ظهورُهما، فقدَّم ذكرَ ما لا يمكن دفعُ انتفائه، وفي هذا التَّقديم جريٌ على نَهْج التَّرقّي في الإنكار والرَّدِّ؛ تلطُّفًا معهم وملاينةً.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

ليس بقُدرةِ إلهٍ مصنوعٍ أن ينفع عبادَه المخلصين بشيءٍ

علَّق النَّظمُ الجليل الفعلَ ﴿يَمۡلِكُ﴾ باللّام الجارَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ [المائدة: 76]، وذلك لبيان الغايةِ من نفيِ القدرة والاستطاعة على النَّفع والضُّرِّ، أي: لا يملك ذلك لأجلِهم، وفي هذا بيانٌ لعجز العجلِ عنِ الرُّتبة التي ادَّعوها له.

نُكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

انتفاءُ نفعِ الإله لمن يعبدُه دليلُ عجزِه عن نفعِ الآخرين

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾، وكان أصلُ الكلامِ أنْ يُقال: (لا يملك ضرًّا ولا نفعًا لهم)؛ لإخراج الكلام مخرجَ التَّخصيص؛ لأنَّ انتفاء الضُّرِّ والنَّفعِ عنِ العجل متحقِّقٌ عمومًا وخصوصًا، فهو لا ينفعُهم، ولا ينفع غيرَهم، فالنَّفيُ ينبغي أنْ يكون عامًّا، ولكنَّه جاء به بأسلوب التَّخصيص للمبالغة في الذَّمِّ والإنكار عليهم، فهو لا يملك لهم على وجه الخصوص نفعًا ولا ضرًّا، فكان ينبغي للعاقل منهم ألّا يعبدَه، ولا يتَّخذَه إلهًا، وفي تقديم: ﴿لَهُمۡ﴾ هنا ما في تقديم: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾، مِن كونِه خطابًا للعقل بأنَّ هذا الذي تدَّعون أنَّه إلهٌ في أبصاركم وبصائرِكم لا يلطفُ بكم، ولا يرحمُكم، ولا يتقرَّبُ منكم، ولا يتودَّدُ لكم، فهل هذا إلهٌ لكم؟.

نُكتةُ تقديمِ نفيِ الضُّرِّ على نفي النَّفع:

الخلوُّ منَ القدرةِ ظـاهـرٌ بـنـفـي العجزِ عنِ الضرِّ أكـثرَ مـن نـفـي العجزِ عنِ النَّفع

قدَّم النَّظمُ الجليل نفيَ الضُّرِّ على نفيِ النَّفع في الذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ ليقطعَ عذرَهم واحتجاجَهم في اعتقاد إلهيَّته، وعبادتِهم له؛ لأنَّ "عذرَ الخائف من الضُّرِّ أقوى من عذر الرّاغبِ في النَّفع"[1]، كما أنَّ انتفاءَ القدرة على إلحاق الضَّرر أبلغُ في إظهار العجز، فإنَّ مَن لا يستطيعُ أنْ يُوقعَ الضَّرر أنّى يكون نافعًا؟ وفي تقديم الضّرِّ على النفع إبرازٌ لسخافة عقولِ هؤلاء عند إقدامهم على عبادة هذا العجلِ؛ فهو لا يملك أدنى خصائصِ المعبوديَّة، وهي دفعُ الضر، فما بالنا بالنفع؟ وهذا التّقديمُ أيضًا أبَرُّ بسياق الإنكارِ والتّقبيح بالاستفهام بالهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾؟.

غرضُ التنكيرِ في ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾:

العجلُ لا يملك بحالٍ منَ الأحوال قدرةً ما على نفعٍ ما أو ضرٍّ ما

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغِ التَّنكير عنِ الضُّرِّ والنَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ للدَّلالة على انتفاء قدرتِه على تحقيق أيِّ نفع كان، أو دفع أيِّ ضرٍّ كان، فوقوعُ النَّكرة في سياق النَّفي يدلُّ على الاستغراق والعُموم، وفي ذلك مبالغةٌ في انتفاء قدرة العجلِ على النّفع والضُّرِّ فالنَّفيُ يستغرقُ كلَّ ما يُمكن أن يُقالَ له: نفع أو ضرٌّ، والمرادُ المبالغةُ في الإنكار عليهم، وبيانِ حماقتهم في اتِّخاذ العجل معبودًا، وهذا التّنكيرُ في نور دلالتِه هذه مِن شأنه أنْ يَشُقَّ على أنفسِهم؛ لو كانوا يعقلون، فهو مِنَ الشّقاء، والمشقّةُ أحدُ عُنصرَيِ السّياقِ الكلّي للسّورة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»